الأدب السياسي البغدادي في القرن التاسع عشر (دراسة مقارنة)

د. محمد حسن علي مجيد
كلية التربية للبنات – جامعة بغداد.

المقدمة وملخص البحث:-
يكاد يجمع مؤرخو الادب والباحثون على ان الادب هو ابن البيئة (١) وهو نتاج تفاعل الحداث معها فهو يصطبغ بالوانها ويتاثر باتجاهاتها ومن ثم يؤثر فيها ويؤكد العلم الحديث هذه الحقيقة حتى يجعل البيئة تنازع عامل الوراثة في اثره لان لكل بيئة مزاياها وخصائصها التي تطبع الادب بطابعها وتترك عليه بصماتها فمهما تشط الاديب في فرديته وطغيان ذاته عليه في ادبه فلن يكون بمنجى عن التاثر بما حوله بشكل من الاشكال لان الادب هو مرآة تنعكس عليها مظاهر البيئة او بمعنى اخر ان الادب تعبير او افصاح عما تثيره ظاهرات الحياة العامة في نفس الاديب ومع الظروف المؤثرة فيها حتى ذهب الناقد الانكليزي (تين taine) (١٨٢٨-١٨٩٣م) الى تسليط اثر الروح الفردية في الادب تسليطا تاما وارجعها الى قوانين ثلاثة هي (الجنس والبيئة والزمان) (٢)....
ومن دراستنا لادب المدن العراقية في القرن التاسع عشر وجدنا ان الادب فيها قد تاثر بطبيعة الحياة القائمة ونوع البيئة التي عاش فيها حتى تميزت كل واحدة منها بنوع من الادب او بغرض من الشعر اجادت فيه يختلف عن الاغراض التي اجادت فيها المدن الاخرى وذلك تبعا لظروفها السياسية والاجتماعية والثقافية وتبعا لبيئتها التي تركت بصماتها واضحة على وجه الشعر فيها فطبعته بطابعها واملت عليه شؤونها وشجونها
ولغرض ان تكون الفكرة واضحة نحاول ان نجد موقع الادب السياسي وحجمه في بغداد على نحو خاص عما وجدنا مثله من الادب السياسي في مدن عراقية اخرى اشتهرت بالاجادة بالشعر وكثرته ونضجه فيها وهي النجف والحلة والموصل لان هذه المدن كانت هي المنابع الرئيسة للشعر العراقي في القرن التاسع عشر ووجد له ثقلا فيها ..
وقبل ان نبدا بدراسة ادب بغداد السياسي نود ان نلقي نظرة سريعة موجزة على ملامح المجتمع العراقي في هذه الحقبة لنرى دوافع شعراء العراق في الاجادة وموقع كل مدينة من مرتبة بغداد بالادب السياسي ...
المعروف ان المجتمع العراقي في هذا العصر كان يعيش في حالة من الفوضى والاضطراب وقد نخرت فيه الافات واقتسمته مطامع الولاة والحكام والموظفين واهل النفوذ حتى جعلت من العراقيين مواطنين ذوي طبائع مختلفة في عاداتهم وتقاليدهم واتجاهاتهم لسبب تعسف الحكام واتباعهم اساليب التفرقة بينهم وانتهاج سياسة (فرق تسد) حتى غدت البلاد مرتعا للصوص وقطاع الطرق فانكمش الناس في مدنهم وقراهم وتظاهروا بالفقر والمسكنة لئلا تجلب نظر اللصوص والحكام والمبتزين وصار التجار يتركون حوانيتهم خالية فارغة من البضاعة لئلا تلفت الانتباه بان لديهم ثروة فيتعرضون للسلب او فرض الضرائب والغرامات الفادحة وفي مثل هذا الجو ساءت اخلاق الموظفين وفسدت الذمم وتفشت الرشوة وتضاءل القانون امام رغبات المتنفذين وتحكم السماسرة والمتاجرون وانهك المرض المجتمع واكتسحته موجات الوباء، ان ظروف الحياة السياسية والاجتماعية هذه وحكم الولاة المتعسف وسياسة التمييز والتفرقة التي اتبعها الحكام خلق لكل مدينة عراقية طابعاً خاصا بها واتسمت بسلوك معين واسلوب في الحياة والمعيشة والتعامل مع السلطة يختلف عن اساليب المدن الاخرى (فمدينة بغداد)- مثلا كانت مركز الولاية ومقر الحكام والموظفين الكبار فسكانها على هذا الاساس اكثر اتصالا بالحياة العامة والسياسية والاداريين والموظفين وضباط الجيش وهم اكثر قربا من الحكام واشد تاثرا بالاحداث وبما يستجد من امور كما كان يسكن بغداد عادة اصحاب الثروة والوجاهة والنفوذ والتجار الكبار ومنهم يختار –في الغالب-الموظفون العراقيون ممن كانت تسمح لهم الدولة بالتوظف في بعض الوظائف المهمة كمناصب الافتاء والقضاة

و الاطباء ورجال الدين والمدرسين فضلا عمن كان يختار من ابناء هذه الطبقات للدخول في المدارس العسكرية ومن ثم تخرجهم ضباطا يتولون زمام البلاد فيما بعد حتى لعبت سلماء بعض ابناء بغداد من العسكريين في افق السياسة العليا في الدولة العثمانية منهم مثلا (محمود شوكت باشا) البغدادي الاصل الذي قاد الانقلاب العثماني ضد السلطان عبد الحميد سنة ١٩١١. فالناس في بغداد اذن- والشعراء منهم على نحو خاص- كانوا اكثر اهتماما بالامور العامة واشد اتصالا بالسياسة واحداثها واكثر تاثرا بها تحكم هذا القرب من مركز الحكومة سواء من كان مواليا للسلطة والحكومة مساندا لهما وهاجما للولاة او من كان معارضا لهما ناقما تاثرا عليهما... (هذا في بغداد)...

اما (الحلة والنجف) فقد ابتعدتا عن السياسة والحياة العامة -بشكل عام- بل لنقل انهما ابعدتا عن الحكم والسلطان وعن المشاركة في حكم البلاد وحرم اكثرا بنائهما من التوظف او العمل في الحكومة ودوائرهما واعمالها (فالحلة) كانت مدينة منكمشة على نفسها لاتثق بالولاة متجنبة مايتعلق باشؤون الموظفين والحكام الذين اتسم سلوك اكثرهم بالقسوة والظلم والتعسف والجور فقاطعهم اهلها ونبذوا دواوين الحكومة ودوائرها عدا ما تجبرهم عليه الضرورة بل وقفوا ضد المتعسفين من موظفي الدولة بالمرصاد حتى ذكر السائح الانكليزي بكنغهام : (ان اهل الحلة كانوا يقتلون حكامهم ويغتالونهم الواحد تلو الاخر دون ان ينالهم عقاب) (٦) وقد ذكر الشيخ مصطفى نور الدين الواعظ مثالا لذلك التصدي حين قال (انه عندما تشدد ظالم حاكم الحلة (الحاج افندي الكردي) سنة ١٢٤٩هـ /١٨٣٣م وسلم اهل المدينة الخضوع وجار عليهم قتلوه وشدوا قتله وانوا به مسحوبا على وجهه مضمخا بدمه)(٧).. وقد ذكر الشيخ يوسف كركوش في كتابه (تاريخ الحلة) ان (الحاج افندي الكردي) هذا : (انه كان ظلوما غشوما استعان به والي بغداد داود باشا في عهده على سلب اموال الناس, وقد ثارت الحلة على الوالي (علي رضا باشا) في ايامه)(٨).. وقد ذكرت المصادر امثلة كثيرة من تصدي الحليين لحكامهم الظالمين والمبتزين والمتعسفين بمناهضتهم او قتالهم اوطردهم من المدينة) (٩), وطبيعي بعد هذه المواقف المناوئة من لدن اهل الحلة ازاء السلطات الحكومية وموظفي الحكومة من الاتراك ان يحرموا من التوظف في الدولة ودوائرها – واذا كانت الدولة حرمت الكثير من العراقيين من الوظائف ولاسيما وظائف الدولة العليا وأبعدتهم عنها (١٠) فان الحليين كانوا اكثر ابعادا عنها وقد ذكر السائح الانكليزي بكنغهام : (ان الاتراك وحدهم هم الذين كانوا يشغلون دوائر الحكومة في الحلة (١١) .. وقد كان هذا السائح الانكليزي بكنغهام قريبا جدا من الحقيقة في تقريره هذا عندما زار الحلة سنة ١٨١٧ , فقد كان الاتراك يشغلون معظم دوائر الحكومة في المدينة عدا بعض الوظائف الصغيرة كالوعاظ وافراد من الشرطة الذين كانت تستخدمهم الحكومة لقمع الثائرين او المتمردين فيها او في غيرها من المدن القريبة وارياقها لذلك انكمشت المدينة على نفسها وعاشت في عزلتها واختارت اسلوب حياتها المتمثل بالانطواء والعزلة والشعور بالغبن ولشغلت نفسها بمجالس العزاء والرثاء الديني والاجتماعي ..

اما (النجف) فانها ابتعدت هي الاخرى عن السياسة وشؤونها ومن المشاركة في الحياة العامة (١٢) وقد قسم الدكتور يوسف عز الدين تيارات الحياة العامة في العراق في القرن التاسع عشر الى تيارين (الاول) يتمثل في (التيار البغدادي) الذي اتصل بالحكام وبالحياة التركية في بغداد و الاستانة , و (الثاني) يتمثل في (التيار النجفي) الذي انعزل عن الحكم وانطوى تحت راية اخرى حريصا على كرامته خائفا وجلا لا يثق بالحكام واغراضهم ومقاصدهم (١٣) بل انها ابعدت من التدخل في امور البلاد (١٤) وحرم ابناؤها من التوظف او المشاركة المشاركة في ادارة شؤون بلادهم (١٥) كما اسهمت مسالة التجنيد الاجباري واساليب السلطة العنيفة في حدة النفور بين النجفيين والحكومة (١٦) ولذلك احسوا ببعد عن السلطة وبفراغ وضجر كبيرين وانطووا على انفسهم وانصرفوا الى حياتهم الخاصة وصار ابناء الاسر المؤسرة يتمتعون بثرواتهم وشبابهم بما يتوفر لهم من مجالات اللهو والانس من متع الحياة مما كانت تسمح به التقاليد والاعراف او مما يختلسونه من تلك اللذات اختلاسا يتسلون به عوضا عن لذة الحكم وجاه السلطان ومن الجدير بالذكر هنا ان الكثير من الاسر النجفية في تلك الحقبة كانت على جانب كبير من اليسار والغنى فقد كان لكثير منهم املاك وعقار وبساتين تدر عليهم الاموال و الارباح كما ان الاموال كانت تاتي الى النجف من كثير من المدن العراقية(١٧) كما ان الجاليات والنازحين الى النجف من مختلف بلدان العالم الاسلامي للزيارة او الدراسة او الاقامة كانوا يفدون اليها بثرواتهم المادية (١٨) فيستفيد منها سكان النجف وذوو المهن والصناعات

والاعمال التجارية كما افادت النجف من تجارتها الواسعة مع بادية الشام والحجاز وبلدان الخليج العربي واليمن وايران (١٩) هذا كله الى مورد مهم اخر هو الحقوق الشرعية التي كانت تاتي الى النجف من انحاء العراق وارجاء العالم الاسلامي فتوزع بشكل خاص على اهل العلم ومعاهدة وعلى الطلبة المقيمين فيها وعلى المستحقين والمحتاجين منهم وعلى بعض المشاريع الخيرية فيها كما كان لالاف الزائرين الذين كانوا يفدون على النجف سنويا فينفقون الكثير من الاموال في احتياجات الزيارة ومتطلباتها من طعام ونقل واقامة وغيرها اثر كبير في ثراء ابناء المدينة مما جعلها في بحبوحة من العيش وفي حياة سهلة مرفهة نسبيا هذه العوامل كلها تضافرت فاوجدت في النجف مجتمعا ميسورا مترفا - بشكل عام – ومن المعلوم ان عوامل الثروة والغنى مع الفراغ واليأس من المشاركة في الحياة العامة اذا اجتمعت قادت الانسان الى اللهو والعبث(٢٠) ... لذلك راح النجفيون يزجون اوقات فراغهم باصطناع الحب وادعائه ينفسون به عن انفسهم ومشاعرهم المكبوتة ويدفنون همومهم تحت ركام من قصائد الغزل وافتعال مجالس الخمر والندمان والشراب والسقاة وسيل من المداعبات الاخوانية والطرائف والهزل والمساجلات يقراونها في مجالس ودواوين يعقدها وجهاء المدينة وابناء الاسر السرية.

اما (الموصل) فلا نجد فيها من الشعر السياسي قصيدة ذات بال من وجهيه المؤيد او المعارض في مدح الحكام او هجائهم .

فمدائحهم كانت عبارة عن تكلف في أطراء الحكام ومجاملتهم ومشاركة في بعض مناسباتهم في الاعياد اوفي منح الخلع للولاة من لدن السلطان او في المناسبات الدينية لان الموصل كانت في هذه الحقبة اكثر بعدا عن مركز الولاية او مقر الحكومة المركزية في بغداد وعن السياسة وشؤونها ولا يسكنها من الحكام والمتنفذين مثلما كان في بغداد فهي اذن ابعد عن الحياة العامة للبلاد وتفصيلاتها وسير السياسة ومداخلاتها ولكنها من ناحية أخرى كانت تتمتع بنوع من الاستقرار السياسي فقد كانت هي مركز الولاية الثانية في العراق بعد بغداد ولان الحاكم فيها كانت تعينه الاستانة باقتراح من والي بغداد وغالبا ما يكون من ابناء المدينة نفسها فمثلا (لما اشغرت ولاية الموصل ايام الوالي داود باشا قرر كبار الموصليين ان يلتمسوا منه ان يرشح لولايتهم موظفا قديرا من ابنائهم سبق ان عرفوه وخيروا كفاءته وهو (يحيى باشا) فلبى والي بغداد طلبهم) (٢١) بينما لا تملك اية مدينة عراقية أخرى ان تقترح او تسمي حاكمها فضلا عن ان يكون من ابنائها حتى بغداد نفسها لم تكن تمتلك مثل هذه الميزة فان كل الولاة الذين حكموا بغداد في القرن التاسع عشر كانوا من المماليك والاتراك والذين كانوا يعينون مباشرة من العاصمة العثمانية (الاستانة) من غير استشارة اهلها بينما حكم الموصل منذ مطلع القرن الثامن عشر لاسرة موصلية وجيهة معروفة من اهلها ومتميزة بمكانتها هي (الاسرة الجليلية) فضلا عن صلات الموصل الدينية والسياسية الطيبة مع بغداد ومع الاستانة ((لذلك بدأت النهضة الادبية في الموصل قبل بغداد والسبب في ذلك هو الحكم العربي لال الجليلي الذي أفضى الى احياء الشعر فيها)) (٢٢)

وهذا يدل على استقرار المدينة وقلة مشكلاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مقارنة بغيرها من مدن العراق وبما ان الموصل عرفت من عصور سابقة باتجاهها الديني وعرف اهلها بتمسكهم بالدين حتى اشتهرت بكثرة اهل الزهد والتصوف وكثرة الزهاد والمتصوفين لذلك كثر الشعر الديني وشعر المدائح النبوية ومدح الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام ومدح الانبياء من ذوي المراقد فيها وشعر مدح ال البيت ومدائح ائمة المذاهب الاسلامية ومدائح اصحاب الطرق الصوفية ومشايخها ..

وبهذه الاتجاهات الادبية المتباينة في كل من بغداد والحلة والنجف والموصل نستطيع ان ندخل في صلب بحثنا هذا في (الادب السياسي البغدادي) في القرن التاسع عشر والدراسة المقارنة له ..

Baghdad Political Literature in Ninteenth Century (A Contrastive Study)

Dr. Muhammad H. Ali Majeed
College of Education for Women - Baghdad University

Abstract

Literature historians and researchers almost agree that literature is a product of the environment and it is the product of interaction of events and it affected by the direction of that environment and then the literature affects the its environment and the modern science confirms this fact until make the environment competes hereditary factor in its effect because that each environment has its characteristics which affect the literature and leaves its effect on it and even when a writer exaggerate in its monopolize and tyranny of selfin its literature, he cannot be away from affection by including around of literature because the literature is the mirror that reflects aspects of the environment.

In other words, literature is expression of aspects of the life inside the writer and influential circumstances and the English pundit Taine (1828-1893) directed to remove individualism in literature and stated that its causes is sex, environment and epoch.

Through our study to literature of Iraqi cities in nineteenth century we found that the literature was affected by the nature of life and the type of the environment in these cities and we found that each city was distinguished by a type of literature or by type of poetry differs from that on another city according to its political, social and cultural circumstances.

To clarify, we find the political literature and its size particularly in Baghdad more than in the other Iraqi cities that well known by poetry and its abundance and maturity the cities are Najaf, Hila and Mosel because these cities was the main source of Iraqi poetry in nineteenth century.

الادب السياسي في بغداد في القرن التاسع عشر :

يفهم من الادب السياسي والشعر السياسي بالمعنى العام تاييد الدولة او معارضتها وان السياسة (في اللغة) هي القيام على الشي بما يصلحه وساس الامر سياسة قام به (٢٣) وتعني السياسة في الوقت الحاضر بالمعنى الاصطلاحي هو (فن الممكن) او تدبير امور الدولة وما يصلح من شؤونها الداخلية والخارجية او ما ينظم علاقاتها مع بعضها وعلى هذا فالادب السياسي او الشعر السياسي اذن مايمس تلك الجوانب من تاييد الدولة او الحكام او معارضتهم حين يتبنى الشاعر موقفا معينا يدافع عنه او يحتج له على اساس من ذلك الفهم السياسي على انه ليس من الضروري ان يكون الشعر السياسي معبرا عن راي يؤمن به الشاعر او عقيدة يصدر عنها بل قد يكون موقفه صادرا عن طمع مادي في منصب يبغيه او مال يؤمله او هدية يحصل عليها او مكافاة ينالها او قضاء حاجة او رغبة في التقرب من الحاكم فيؤيده من غير حب , او يعارضه من غير حق او ذنب ... اذن ليس من الضروري ان يكون الشاعر في (الشعر السياسي) مؤمناً بما يقول لذلك ان المواقف السياسية الذي وجدنا عليها أغلب شعراء بغداد تتارجح بين هذه العوامل بين أيمان بالقول وأعجاب بالحاكم أوطمع في نوال وبين مقرب مقارف في تقربه او معارض مقارف في معارضته .. الى أن جميع هذه الانماط تنطوي تحت عنوان الشعر السياسي أو الادب السياسي المشتمل على تاييد الدولة أو معارضتها ..

لقد سار الشعر السياسي (في بغداد) في هذه الحقبة في اتجاهين متعاكسين فرهط من شعرائها اثر كرامة الوطن وعزة النفس فلم يتزلف لحاكم او الى ولم يتملق مسؤولاً او موظفاً .. ويكاد الشاعر عبد الغني جميل مفتي بغداد (٢٤) يمثل هذا الاتجاه في سلوكه وشعره فقد عارض سلوك حكام بغداد وتعسفهم ودعا الى تخليص البلاد منهم والى هجرها وترك ديار الذل والجور ان لم يجد منفذا للاصلاح لقدرة على الوقوف بوجه الاستبداد والتعسف (٢٥) وقد عد القادر شعره :(من المصادر الجيدة لدراسة تاريخ العراق في القرن التاسع عشر سياسيا واجتماعيا) (٢٦) لانه (يسجل تاريخ بغداد السياسي في عصره تسجيلا واضحا. (٢٧) وانه (أول شعر وطني سياسي ظهر في القرن المطلع (ال١٩) في العراق) (٢٨) (وان شعره على قلته مازال أكثر أهمية لنا من كثير من المجموعات الضخمة من الشعر) (٢٩) في تصويره الحياة السياسية في العراق كما (كشفت إشعاره عدة حقائق اجتماعية وسياسية لم يجرا الكتاب على ذكرها) (٣٠).

فمن شعره السياسي قصيدته التي اظهر فيها عبد الغني جزعه من جراء تعسف الحكام بالناس والتي أرسلها الى صديقه العلامة أبي الثناء الالوسي حين كان الاخير في الاستانة سنة ٨٥٣ ام واظهر فيها المه وشكواه مما صارت اليه حال بغداد على يد الجائرين والمتعسفين وما كان يعانيه اهلها من عسف وعنت على أيديهم فيقول

لهفي على بغداد من بلدة ... قد عشعش العز بها ثم طار
كانت عروساً مثل شمس الضحى ... لمستعير حليها لا يعـــــار
كان بها للشئ ماتشتهي ... كجنة الخلد ودار القـــــرار
حل بها قوم وهم في عمى ... ماميزوا اشرارهـــــا والخيار
واصبح الفرد بها مقتدى ... يلعب بالالباب لعب القمـــــار
والليث قد غاب وفي غابه ... قطاً غدا الثور عليه المدار
وللاخنا لما غدت مريضا ... قد سجد الليث بها للاحمار
قد نعق البوم على جدرها ... يصيح بالناس البوار البوار

ثم يخاطب أبا الثناء شاكيا:

ايا شهاب الدين ياسيدي ... قد هجم الذل علينا وغار
بغداد كم اخفى عليها الذي ... من لسره لا يستطاع الفرار(٣١)

ولعل قليلا من شعراء العراق من كان جريئا في نقده للحكام مثل جرأة هذا الشاعر البغدادي صريحا في ذكر مظالمهم في هذه الابيات التي لاتحتاج الى الاتهام الصريح غير ذكر الاسماء ولم تكن هذه القصيدة الجريئة

هي الصيحة الوحيدة التي اطلقها هذا الشاعر البغدادي الثائر انما تكاد لشعاره كلها تكون علىهذا النمط ومثل هذه الجرأة والصراحة

وهناكشاعر بغدادي اخر هجا الولاة الاتراك علانية وسماهم بأسمائهم ولم يكن موريا اومستعملا الايحاء او الرمز مثلما كان يفعل اغلب شعراء العراق حيث تضيق صدورهم اوينالهم اذى او يلحق المجتمع حيف ذلك هو الشاعر (احمد الشاوي) (ت ١٣١٩هـ/١٩٠١م) الذي انبثت من اعماقه صرخة قوية في وجه الاستبداد العثماني التركي – حين قال :-

الا ليت شعري والامانيضلة وعمر الفتى- ان عاش- ما عاش للهلك
امختر مي ريب المنون ولم اكن لا درك للاسلام ثارا من الشرك
وابرد من صهب (العثانين)غلتي ولتشفي ولستشفي بسيطي من الترك (٣٢)

ان هذه الجرأة البغدادية – ان صح التعبير – لا وجود لمثلها في شعر القد السياسي في هذه الحقبة في تميز الشعر البغدادي حين سمى الشاعر الاتراك باسمائهم ونعتهم بالشرك بلفظ صريح وان يسل سيفه ليضرب الاتراك ...

ويمثل هذه الجرأة البغدادية ينقد شاعر بغدادي اخر ملوك الترك وحكامهم هو الشاعر (صالح القزويني البغدادي) (٣٣) المتوفى سنة ١٨٨٨م نقدا جريئا وهجاهم هجاء صريحا ويبدي حنقه عليهم حين غدروا بزعيم قبيلة خزاعة العربية (مطلق بن كريدي) الا ان الاتراك قبضوا عليه وسجنوه ثم قتلوه في مقهاه (٣٤) فسخط عليهم الشاعر وهجاهم هجاء شديدا في قصيدة طويلة قال في مطلعها :

وكم لملوك الترك هتك لحرمة لاهل النهى والهنك من شيم الترك (٣٥)

ولا نظن بعد هذاالمطلع اننا نحتاج الى المزيد من ابيات القصيدة فهي مقروءة من عنوانها الواضح في القد السياسي الجري وفي الجهربشتم الحكام الاتراك ونقدهم ومهاجمتهم جرأة قل نظيرها في الشعر العراقي في غير بغداد.

هذه الامثلة المقتضبة التي ذكرناها هي قسم من امثلة كثيرة حواها الشعر السياسي في بغداد في هذه الحقبة وهي تمثل الجانب (الثائر المعارض) للدولة اراصد لمساوئها الناقد لتصرفات السلطة فيها على ان هناك الوجه الاخر من شعر بغداد السياسي في هذه المرحلة وهو الشعر (المساير للدولة والمساوم لها) والمتزلف للسلطة الضالع في ركابها وهو كثير ايضا في شعر بغداد كثرة تامة ولاتستطيع هذه الدراسة ان ترصد كل الشعر البغدادي الذي ايد الحكام وعاضدهم ومدحهم طوال قرن كامل من الزمن وقد لاتحتاج اليه كله لتوضيح تمكن السياسة من الشعر البغدادي في هذا القرن وكثرتها فيه انما نحن سنشير الى قسم منه لنوثق راينا في كثرة الشعر السياسي في بغداد ونضجه مما غصت به دواوين شعراء بغداد ولاسيما الكبار منهم امثال: صالح التميمي وعبد الغفار الاخرس وعبد الباقي العمري وكثيرين غيرهم ...

ان الشعراء البغداديين الذي ايدوا السلطة كثيرون وقد مدحوا الولاة والحكام والموظفين على اختلاف درجاتهم من الولاة إلى اصغر الموظفين على ان القصائد الممالئة للولاة والحكام والموظفين كانت في الغالب تحمل صدق الود وحرارة العاطفة لانهم كانوا- عموما- مرتبطين بهم يتلقون تشجيعهم ورعايتهم ويتسلمون عطاءأتهم...

فالشاعر(صالح التميمي) الذي ارتبط بالوالي داود باشا منذ صباه حين عينه موظفا في ديوان الحكومة وقربه حتى صار مثل النطاق الرسمي يسلم الوالي ويسار يغدق عليه المديح بقصائد كثيرة ضمها ديوانه حوى الكثير من صدق العاطفة وشدة الارتباط والاعجاب بالوالي.منها-مثلا-قصيدته التي هنأ بها الوالي باانتصاره على قبيلة عنزة العربية من طوق بكر بن وائل والتي جاء فيها قوله:

سلوا حي بكر اين قوض وائله وفي أي اقطار تولت قبائله
انت تبتغي بالسيف عزا وموطدا وكيف يعز السيف ما الله خاذله
فعارضها من افق بغداد عارض ابى الله الا ان تبيد زلازله
خميس يرى للشمس عينا حميئة من القع حتى كورتها حبائله
يظل القطا الكدري يطلب معقلا وهيهات غصت بالرعيل معاقله(٣٦)

وفي قصيدة اخرى ايضا مدح بها معاون الوالي (الكتخدا) (سليمان اغا) وهجا قبائل الخزاعة وشمر العربيتين وعدهم خوارج لانهم خرجوا على حكم الوالي داود باشا والتي منها قوله :

ابلغ خزاعة والخوارج شمرا نصحي وما نصحي بقول كاذب
اين المفر ولا مفر اذا دنا من حيكم سهم الوزير الصائب
اعني سليمان الوزير اذا سطا بكتائبٍ ملتفة بكتائب(٣٧)

ومنها قصيدته التي مدح بها الوالي (علي رضا باشا) عند فتحة (قلعة اربيل) وضرب الاكراد الذي عده الشاعر اعظم من فتح المعتصم لقلعة عمورية حين قال في قسم منها :

لاتروعن فتح (عمورية) خبرا ففتح (اربيل)ما ابقى لها أثرا
لو أن (معتصما) تعدوه صارخة بقطر(اربد) عن ادراكها قصرا
دع ملسمعت وحدث بالذي ظفرت عيناك فالصدق مقرون بمن ظفرا
لوكنت تشهد اذ حفت بها زمر حتى اذا فضيت ساقوا لها زمرا
ظنوا الردى فوق ظهر الارض ما علموا في بطنها وحفاظ يقلق الحجرا
حتى اذا باللظي قامت قيامتهم والبغي يورد من يعتاده سقرا
مضوا فرارا لعجل صار في بقر لستغفر الله اني اظلم البقرا (كذا)
وان من خاف السلطان ما ربحت يوما تجارته بل انما خسرا
صيرت عاليها بالنار سافلها من كان معتبرا فلينظرن عبرا
سن الوزير (علي) في العلى سننا كانما شاء ان يستخبر الوزرا
مولى له السعر فيما شاء مؤتمر كما راينا عليه العفو مؤتمرا
يعفو ويصلح عن جان جنى ولكم اغنى وبعد الغنى يلقاه معتذرا(٣٨)

اتلاحظ الاندفاع والانبهار والاندماج بخدمة السلطان ومسايرته حتى جعل من اهالي اربيل بقرا مع الانتباه الى قوله :

(لستغفر الله اني اظلم البقرا) فجعلهم اقل شأنها من البقر هذا هو اسلوب الملق الذي يسلكه بعض الشعراء للحكام للتزلف والتقرب منهم في كل حين ومكان وزمان وهكذا راينا صدور هذا الشاعر البغدادي عن قلق حقيقي يسوقه الى ذلك حكم عمله وايدي الوالي عليه فظهر ذلك كله في قوة الشعر وحدة اللهجة وامتداد القول ودقة التعبير وحسن الوصف ...

كما ظهر مثل هذا في قصيدته التي مدح بها الوالي (علي رضا باشا) ايضا وهجا بها قبيلة كعب العربية التي تسكن (المحمرة) حين غزاها الوزير واجتاحها وقتل بافرادها وهي طويلة وصف فيها اولا المحمرة ومعالمها بعدها وصف المعركة وشدتها وقوة جيش الحكومة بعدها يخلص الى مدح الوزير والاشادة بهمته وبسالته في هذه المعركة مع ثلب الثائرين الى حد التشفي بهزيمتهم وانكسارهم والصاق تهم الفتنة والتمرد والشغب والخروج عن طاعة الوزير الذي هو من طاعة الله حين يقول في قسم منها :

اكانت مراقي المجد الا قوا ضبا وخطية شمراً قنا وسلاهبا
لقد طبقت غرب البلاد وشرقها وصالت فما ابقت عدواً محاربا
وزير ابى الا التوكل مسعدا ولم يرض الا العفو خلا وصاحبا
فما يوم (ذي قار) وان زعمت به ربيعة يوم الفخر نافس حاجبا
باعظم من يوم(المحمرة)التي بها نشرت بيض الحدود نوائبا
رمى شرقها الاقصى باعظم وقعة لها بالردى خطب يهول المغاربا
واضحى بكعب الرمح كعبا فاصبحت منازلهم بعد الانيس سباسبا ولو لم يحل من دونهم ستر عفوه
ويحيون من صفح الوزير رغائبا
لما ابصرت عيناك الا ثوا كلا ولا استمعت اذنك الا نوادبا(٣٩)

ويظهر مثل هذا التعلق بالوالي ومدحه والاشادة باعماله ومفاخرة وحروبه من لدن الشاعر التميمي في قصيدته التي مدح بها الوالي (علي رضا) نفسه حين غزا قبائل خزاعة فاصطف الشاعر بصف الوالي وهجا القبيلة العربية مرة اخرى التي ثارت على الحاكم التركي وانشاد بالقصيدة ببطولات الوزير وشدته باسه على

خصومة الاشرار –كذا- وازرى بالقبيلة العربية الثائرة لكرامتها من ابتزاز السلطة الاجنبية وتعسفها والتي قال في مطلعها.

كـــذا فلـــيكن مـــن قـــاد جيـــشاً عرمرمـــا وأســـرج خـــيلاً للمعـــالي والجمـــا

والقصيدة طويلة يمكن مراجعتها في الديوان (٤٠) ويبقى هذا الشاعر البغدادي يشيد بهذا الوالي حتى ليكتظ ديوانه بمدائحه وتعلقه به إلى بقي يتحسر على ايامه حتى بعد نقله من العراق الى الشام منها قصيدته الطويلة التي بعث بها اليه الى الشام ووصف فيها تشوقه له وتعلقه به والتي تفيض بالاوجة ومرارة الحسرة على ايامه والاسف على فراقه التي قال في مطلعها :

ايام غيرك قد اكدى بها املي عسى بايامك الاقدار تسمح لي (٤١)

اما الشاعر (عبد الباقي العمري) الذي كان موظفاً كبيرا في الحكومة وبرتبة (معاون الوالي) في بغداد فقد قال شعرا كثيرا في تاييد الولاة ومدحهم من شاركهم معهم وايدهم في حملاتهم وهناهم بانتصاراتهم التي شنوها على المدن والقبائل والارياف الثائرة فقد هنا عبد الباقي – مثلا- الوالي نجيب باشا في حملته التي شنها على مدينة كربلاء واجتياحه لها في الثاني من ايام عيد الاضحى من سنة ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م وبطشه باهلها بسبب تجمع بعض الاشقياء فيها والفارين من مطاردة الحكومة والشاعر يذكر هذه الحادثة عندما ورد الامر السلطاني بتثبيت الوالي في بغداد ومنحه سيفا من السلطان فيجعل من الحادثتين مناسبة وطنية كبرى ويشيد به ويخاطبه ويقول له : ان العراق بهاتين المناسبتين قد حقق امانيه واماله –حين قال :

بك العراق حقق الامانيا لما تقررت عليه واليا

قلدك السلطان سيف حكمه فقمت فيه امرا وناهيا

للعدل في الزوراء رحت ناشرا مطاردا للجور فيها طاويا

رعيتها ممتثلا (لكلكم راع)وفيك اعشوشبت مراعيا

ثم يعرج على حملته على كربلاء فيقول: ان الوالي ادب كربلاء بسيفه

مهدت بالهندي يوم كربلا هندية فاندرست مجاريا

وقد تركت(الرفض)فيها صفدعا جفت سواقيه فمات صاديا(٤٢)

كل هذا من اجل ارضاء نوازع الوالي وتملقه وكسب ثقته وأظهار الاخلاص له مع ان المناسبة التي ضمت فيها القصيدة لم تكن بذات علاقة جملة او معركة انما هو التقرب و الاندماج بالجو السياسي العام وبالفعل الاندماج بالجو السياسي والمقولة بربط الحوادث غير المترابطة لدى شعراء بغداد في هذه الحقبة تبدو اوضح مع الشاعر (عبد الغفار الاخرس) حين تصنع للشاعر عبد الباقي العمري عذرا في موقفه السابق من حملة الوالي على كربلاء وبطشه باهلها لانه كان موظفا كبيرا بالحكومة – وهو مضطر- بحكم منصبه الكبير ولغرض الحفاظ عليه – الى ذلك الملق والاطراء ولكن اللوم على الشاعر الاخرس يكون اكثر والغرابة اشد فعلى الرغم من انه لم يكن من موظفي الدولة فان قصيدته التي نظمها بعد حادثة اجتياح كربلاء مباشرة جاءت بعد عنفا من قصيدة العمري في مهاجمة اهالي كربلاء ووصفهم بالفسق والتمرد والفساد واكثر حماسا في تاييد حملة الوالي والشماتة بهم على الرغم مما قيل عن تشيعهم ونسبه العلوي (٤٣)فمن المعلوم ان اجتياح قوات الوالي لكربلاء كان في اليوم الثاني من ايام عيد الاضحى فاغتنم الاخرس البغدادي هذه المناسبة ليبدا بتهنئة الوالي بالعيد ثم بانتصاره في حملته هذه ..

فقال : ان الوية النصر قد خفقت مقتبة في يوم العيد حين هفت قواته البغي والفساد الذي احدثه اهالي كربلاء فعاجلهم الوزير بالضربة البكر حتى جعلتهم المدافع يرون اهوال الحشر في يوم النحر أي في عيد الاضحى فيقول :-

لقد خفقت في النحر الوية النصر وكان انمحاق الشرفي ذلك النحر

وفتح عظيم يعلم الله انـــــه ليستغفر الأخطار من نوب الدهر

محا البغي صمصام الوزير كما محا دجى الليل في اضوائه مطلع الفجر

لقد فسدوا شر الفساد بارضهـم الى ان اتاهم منه بالفتكة البكـر

رمتهم بشهب الموت منه مدافع لها شرر في ظلمة الليل كالقصر

راوا هول يوم الحشر في موقف الردى وهل تذكر الاهوال في موقف الحشر

ثم يستمر في وصف حال اهالي كربلاء وهم يفرون من الموت الذي صار يتلقفهم من مكان الى اخر ولا ملجأ لهم ولا ملاجا يحميهم من غضب الوزير حتى ان قبر (ابن النبي) أي (ضريح الحسين) الذي لاذوا به لم ينجهم من مدافع الوزير وحراب جنده فوقعوا صرعى :-

فراحت بها الاجساد وهي طريحة تدلس على ذنب جنته لدى الوزر
تجول المنايا بينهم بجنودهـــــا بحيث مجال الحرب اضيق من شبر
تلاطم فيها الموج والموج من هم تلاطم موج البحر في لجة البحر
فلاذوا بقبر (ابن النبي) محمـــد فهل سر في تدميرهم صاحب القبر

وأخيرا يؤرخ الحادثة :

ولا زال في عيد جديد مؤرخا (فقد جاء يوم العيد بالفتح والنصر) (٤٤) (١٢٥٨ هـ)

هكذا رأى الاخرس البغدادي ضربة الوالي المميتة لمدينة كربلاء وأهلها ونحن هنا لا يعنينا كثيرا موقف الاخرس من حادثة كربلاء بقدر ما يعنينا توثيق راينا بارتباط شعراء بغداد بالولاة او بالسياسة واحداثها فقد اكتظ ديوان الاخرس بهذا النوع من الشعر السياسي وفيه من الكثرة وقوة الارتباط وصدق العاطفة وحسن اللغة فيما نظم في تاييد الولاة والمسؤولين ومدحهم مثل صاحبية التميمي والعمري بل انه يبقى على اتصال بهم حتى بعد نقلهم من بغداد فقد سبق للاخرس ان ارسل قصيدة مطولة الى الوالي داود باشا الى الاستانة بعد عزله عن ولاية بغداد يتحسر فيها على ايامه – قال في مطلعها :

بوادي الغضا للماكية اربع سقاها الحيا منا جفون وادمع(٤٥)

والقصيدة تتصف بصدق كثير في العاطفة وقوة في السبك وحسن في التصوير وحسرة شديدة على فراقه وتعلق شديد بالوالي المعزول تدل على العلاقة الوثيقة بينهما ايام كان الوالي في بغداد ويوثق راينا بازدهار الشعر السياسي وكثرته في بغداد مع قوة الشعر وصدق العاطفة واندفاع في التاييد والمدح على ان هؤلاء المتعلقين بالحكام المادحين للولاة قد يطفح الكيل لدى بعضهم حين يشتد سلبداد الحكام ويطغى الجور ولم يعد في القوس منزع ولا في النفس مصطبر واحتمال فيجأرون بالشكوى ويندون بالسلطات من غير خوف او وجل ها لا يجسر على البوح به غير شعراء بغداد .. فهذا الشاعر(عبد الباقي العمري) الموظف الكبير في الدولة نراه يعلن عن غضبه على السلطات حين يكثر الفساد وتسود المظالم فيهاجم السلطة هجوما شديدا وصريحا حين يقول في قصيدة طويلة فيها سخرية قاسية منها قوله :

قد استحال العراق مفسدة ليس سوى السيف يصلحها
واهله كالاغنام عاث بها اذؤبه والكلاب تذبحـــا
هذا بسلطور الشر يسلخها واذا بكين القهر يذبحهـا
وكم تيوس على العراق نزت من اين لي ذو القرنين ينطحها (٤٦)

ويصرخ الشاعر البغدادي عبد الغفار الاخرس حين يطفح به الكيل من جور الحكام ويضطر للاعتراف ان حكام البلاد وملوكها الذين يتولون امر البلاد ليسوا غير (بقر) لا يفهمون ولا يفقهون شيئا :-

بلد كبار ملوكه بـــقـــر صاروا ولاة النهي والامـر
لا يفقهون حديث مكرمة فيهز هم ظلمي ولا نثـــري
اصبحت اشقى بين اظهرهم فكانني اصبحت في سـر (٤٧)

هذه اللهجة الحادة من الشعر السياسي لا نجدها عند غير شعراء بغداد في هذه الحقبة من تاريخ العراق وهذا يدل على ان شعراء بغداد كانوا ادنى الى السياسة واحداثها واكثر اتصالا من غيرهم من الشعراء بالحياة السياسية ويبقون هكذا ماسكين لواء الشعر السياسي حتى ياذن هذا القرن بالزوال ويبزغ فجر القرن العشرين وحين تستمر الاحداث في مطلعه يبقى شعراء بغداد ماسكين زمام الشعر السياسي ومتقدمين الصفوف وترى راية الشعر السياسي ما تزال في ايديهم يقودهم الزهاوي والرصافي ولا نفقد ان شاعرا عراقيا في هذه المرحلة من تاريخ العراق من غير بغداد يستطيع ان يطاول هذين الشاعرين الكبيرين في مجال الشعر السياسي فقد نظم الزهاوي (اول قصيدة ثائرة تحمل عنوانا ... وهي حتام نغفل) (٤٨) سنة ١٨٩٨م (فكانت اول قصيدة سياسية واعية سجلها شاعر عراقي (٤٩) وقد ذكرنا ان الدكتور يوسف عز الدين قد قسم الحياة الثقافية في العراق في اواخر القرن التاسع عشر الى تيارين متميزين الاول – التيار البغدادي الذي

اتصل بالحياة التركية والثاني - التيار النجفي الذي انعزل واطوى على نفسه ورفع راية اخرى حريصا على كرامته خائفا وجلا لا يثق بالحاكمين ولا بوعودهم (٥٠) كما قسم الدكتور عز الدين ايضا الشعراء العراقيين الذين شاركوا بعد ذلك في اعلان فرحتهم بالدستور العثماني الى اتجاهين :- الاول :-تقليدي متمثلا بشاعرين حليين هما حسن العذاري (ت ١٩١٣م) وعبد المطلب الحلي (١٨٦٢-١٩٢٠م) والثاني :- يمثل اتجاه العصر متمثلا بشعراء بغداد وبشكل خاص بالزهاوي والرصافي والكاظمي وغيرهم وجعل منهم وجعل منهم ثلاثة من شعراء النجف – هم محمد رضا الشبيبي وعبد العزيز الجواهري وعلي الشرقي ولكنه ذكر لهم امثلة قليلة من شعرهم مجموعها احد عشر بيتا فقط هو كل ما اسهموا به في فرحة الدستور ولم يكن بينهم شاعر حلي واحد كما لم يكن بين هؤلاء من ذوي الاتجاهين شاعر موصلي واحد (٥١) وهذا يوضح ان شعراء بغداد الصق بالحياة العامة وانشر اهتماما بموضوعاتها السياسية ولعل في كثرة اسفار شعراء بغداد وسياحتهم داخل العراق وخارجه عاملا اخر اكسبهم عمق النظرة واتساع الثقافة انعكس اثرها على شعرهم السياسي والاجتماعي فالاخرس البغدادي مثلاً ولد في الموصل وعاش متنقلا بين بغداد والبصرة وسافر الى الهند لعلاج حبسة في لسانه وتنقل صالح التميمي بين الكاظمية والحلة وبغداد وعبد الباقي العمري نشا في الموصل واشتغل في النجف ثم عاش في بغداد وعبد الغني جميل عاش ردحا من حياته في الشام لما لاسفار الزهاوي والرصافي الى خارج العراق الى تركيا والشام ومصر فلها اثرها الكبير في اتساع افاقهم وعمق نظرتهم للحياة واخيرا لولا نزوح الكاظمي الى مصر واقامته فيها لما كان له من الذكر ما له الان ولبقي واحداً من شعراء العراق المغمورين(٥٢)

اما شعراء الحلة والنجف والموصل فنادرا ما غادروا مدنهم او بلدانهم الى غير المدن المجاورة مثل كربلاء وسامراء والكاظمية في زيارات قصيرة خاطفة او الى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج.

ولعل من المناسب ان نذكر هنا ان الشاعر محمد سعيد الحبوبي(١٨٤٩-١٩١٥م) اكبر شعراء النجف في هذه الحقبة الذي بدا حياته دارسا للادب والفقه ثم مدرسا لهما ثم مرجعا دينيا كبيرا ثم مجاهدا في سوح القتال سنة ١٩١٥م وهو يذود القوات الانكليزية الغازية للعراق ليس في ديوانه المطبوع البالغ (٣١٢ صفحة) في طبعته الاولى و (٦١٩ صفحة) في طبعته الثانية بيت واحد من الشعر السياسي بل انهما يخلوان خلوا تاما من أي شكل من اشكال الشعر السياسي ولو عن طريق التورية او الرمز او عن طريق الشعر الديني ....

اما اذا استعرضنا دواوين شعراء النجف الاخرين فاننا سنجدها هي الاخرى يندر فيها هذا اللون من الشعر ففي ديوان الشاعر النجفي الكبير (ابراهيم بحر العلوم) ثلاث مقطوعات فقط من الشعر السياسي الجامل او الباهت – اذا صح التعبير (٥٣) وليس في ديوان الشاعر (موسى الطالقاني) الضخم وهو من شعراء النجف البارزين حينذاك الذي يقع في (٤٣٤ صفحة) من الشعر السياسي غير قصيدة واحدة (٥٤) اما ديوان الشاعر (محسن الخضري) وهو من اكابر شعراء النجف وقتها والذي يقع في (١٩٦ صفحة) فهو لم يحو غير بيتين من الشعر السياسي مدح بهما متصرف الحلة (٥٥) على حين انعدم هذا اللون من الشعر انعداما تاما في ديوان الشاعر النجفي الكبير (عباس ملا علي النجفي) (٥٦)

ولعل أجرا بيت من الشعر السياسي النجفي ما قاله الشاعر ابراهيم بحر العلوم في هجاء حاكم النجف حين قال:

بلد به يرشى علانية والمرتشي هو حاكم النجف

الا انه مما يقلل من اهمية هذا البيت السياسية وعدم ضمه الى شعر القد السياسي ان هذا الشاعر النجفي نفذ لهجاء حاكم النجف من خلال قصيدة مدح بها والي بغداد وتظلم اليه وشكا حاله اليه وبعض شؤونه شؤون النجف بلسلوب فيه تذلل وتملق وخضوع فضلا عن ركة الابيات وتخاذل الاسلوب وعدم الصدق في العاطفة حين قال في اولها :

والي الولاة اليك مظلمتي لشكو بعين الواحد الاحـــد

لرواتك الشاكون قد عمدوا ورواق عدلك مشرع العمد(٥٧)

اما (الحلة) فان اكثر القطع السياسية في صدرها وقد الحكم وما تختزنه في نفسها من حزن او كره للسلطة فقد كانت تجد مسارب لها في قصائد الرثاء الديني او في نداء الامام المهدي المنتظر او في شعر الشكوى الاجتماعية ولم نجد في شعر الحلة كله قصائد سياسية مستقلة في موضوعاتها واهدافها في مدح او

نم ولا حتى في ابيات متفرقة غير ما يمكن ان نستشفه في بيت مبرد (للشاعر حيدر الحلي) من النقد السياسي مما يوحي بذم الاتراك الا انه جاء في شعر الاخوانيات وليس في معرض السياسة او الهجاء السياسي هو قوله مخاطبا احد اصدقائه شاكيا له من تخلى عنه من معارفه وقت الشدة حين قال

لا يفهمون المكرمات كأنها عربية وكأنهم اتراك (٥٨)

وواضح ان البيت لم يجئ في هجاء الحكام الاتراك مباشرة وليس على نية القد السياسي ولا على نية الشر والذيوع بل انه على نطاق محدود بين المعارف والاصدقاء – ولو انه من جهة اخرى – يمثل شعور الحليين بالقرف والضجر من الحكم العثماني ومن سلوك الحكام الاتراك الخشن

ولعل من اجرا قصائد القد السياسي في الحلة في هذه الحقبة هي قصيدة الشاعر (صالح الكواز) الذي قد بها حملة الوالي (نجيب باشا) على كربلاء سنة ١٨٤٢م- التي مر ذكرها-

والتي وقف فيها شعراء بغداد الى جانب الوالي وقد استوحى فيها (الكواز) العقيدة الدينية وسلك سبيل الشكوى لكن الشاعر فيها – على صدق عاطفته وسخطه وشدة المه وحزنه على من قتلوا من اهالي كربلاء – لم ينقد الذين هاجموها نقدا صريحا مباشرا ولم يسم الحكام باسمائهم انما اتخذ من الدين ستارا في نقده والاعراب عن غضبه حين وجه كلامه الى الامام المهدي المنتظر مستغيثا وهاتبا حين قال في قسم من القصيدة :-

احلما ودين الله اوشك يتلف وصبرا وداعي الشرك يدعو ويهتف
دعوتك للتوحيد قد غل اهله اناس على الاوثان تعنو وتعكف
دعوتك للدين الحنيف فقد غدا ضئيلا عليه الشرك يقوي فيضعف
دعوتك للمظلوم ضاعت حقوقه وليس له من عصبة الجور منصف
اترضى وانت المستجار بانا بايدي العدى من ارضنا نتخطف
وايسر ما يشجيك ان مجاوري ضريح ابيك السبط عن قبره نفوا

ثم يشكو الى الامام المهدي ما آل اليه العرب حين ملكهم لئيم الجانب حقود ليس الصفح ولا الرحمة الى قلبه من سبيل فيقول:

ايملك امر العرب من لا ابا له ولم ينمه فيهم نزار وخندف
لئيم فما للصفح عند اقتداره محل ولا للحلم ان هاج موقف(٥٩)

ولاشك في اننا نلاحظ ان الشاعر اتخذ من الدين قناعا لمهاجمة السلطة وانه في القصيدة لم يسم الاشياء باسمائها ولا الحكام بوظائفهم او رتبهم بخلاف ما وجدنا عليه لدى شعراء بغداد من نقد صريح وواضح .... اما (المديح السياسي) من لدن شعراء الحلة للحكام في هذا العصر فانه يكاد ينعدم خلا بعض المقطوعات المتفرقة التي نظمها بعض الشعراء مجاملة او رهبة او رغبة او ملقا واضحا تضطرهم اليه الظروف والمناسبات وقد خلت كلها من صدق المودة وحرارة العاطفة ونكهة الشعر لان الحليين بشكل عام لم يألفوا الحكام وقل اختلاطهم بهم وقاطعوا دوائر الحكومة - مثلما مر بنا – فمن الطبيعي ان لا يقولوا مدحا صادقا او ثناء جميلا ...

ولعل خير قصائد المديح السياسي الحلي تلك القصيدة التي نظمها الشاعر (حيدر الحلي) في الوالي (مدحت باشا) فقد جاءت فيها صور جميلة وصياغة موفقة وشاعر طيبة الا انه ما يقلل من قيمتها السياسية ان الشاعر نظمها بناء على تكليف صديقه الوجيه البغدادي (الحاج مصطفى كبة) (٦٠) ولم تكن بدافع ذاتي منه ولا بسبب علاقة خاصة بينه وبين الوالي ولكن جودتها تعود الى موهبة الشاعر وقدرته الفنية العالية من جهة والى استحقاق ذلك الوالي الاصلاح – كما هو معروف عنه – وتواخوانه على اعجاب العراقيين ومحبتهم دون غيره من ولاة العراق قبله والى الإصلاحات الكثيرة والاعمال النافعة التي اداها الوالي للبلاد من جهة اخرى الهمت الشاعر قصيدة مدح سياسية تتميز بجودتها وتعبق بالاعجاب بشخص الوالي واعماله ولو انها اثقلت بالمبالغة والتضخيم على عادة شعراء العصر انذاك والقصيدة طويلة يمكن مراجعتها في مصادرها نذكر قسما منها قوله :

اثنت عليك باسرها الـــدول وتشوقك الاعصر الاول
واعدت للايام جدتـــــــها فاليوم عمر الدهر مقتبل
وارى الممالك يا ابن بجدتها لك شكرها كذلك متصل
اوسعتها وفضلتها كرمـــا عنه يضيق السهل والجبل
ولئن اقمت بحيث انت وقـد امنت بك الاقطار والسبل
والارض حيث تجوسها رجل والناس حيث تسوسها رجل
الخ..... (٦١)

اما في (الموصل) – فقد ذكرنا – انها وان لم تكن على خلاف شديد مع الحكم في بغداد او في الاستانة مثلما كان حال الحلة والنجف الا انها مع ذلك انها كانت بعيدة عن مركز ولاية العراق الكبرى (بغداد) ومقر السياسة كما انها لا يسكنها من الولاة والحكام والمنتفذين واصحاب السلطة المؤثرين في الاحداث ممن تكون لهم علاقة حميمة مع الاستانة عاصمة الدولة العثمانية كما في بغداد او ذات مصالح واسعة او مباشرة مع حكام بغداد لكنها من جهة اخرى هي ليست على خلاف ما معها فطبيعة وضعها الاجتماعي هذا ادى الى عدم انغماسها بالسياسة او الصراع السياسي او الاهتمام بشؤون السياسة واحداثها سلبا او ايجابا لذلك كان الشعر السياسي فيها قليلا وليس ذا اهمية فنية او اجتماعية كبيرة ولم تكن تعير هذه الناحية اهتماما كبيرا انما سارت حياتها هادئة مستقرة وفي شكلها المالوف وهو الهدوء النسبي والاتجاه من السياسة الى الدين الذي عرفت بالتمسك به والانصراف الى مدح الرسول الكريم (ص) واصحابه واهل بيته الابرار في الشعر لذلك قل فيها الشعر السياسي ولاسيما هجاء الحكام الى حد كبير او الى مناواتهم لان العلاقة كانت بين الناس وشعراء الموصل وبين الحكام ايجابية ولان حكام الموصل – مثلما ذكرنا – كانوا في الغالب من ابناء المدينة نفسها ويتفهمون حاجاتها ويعملون لمصلحتها خلافا لحكام باقي المدن العراقية الاخرى ومن جهة اخرى بسبب ضعف الارتباط السياسي بين الموصليين وحكام بغداد وبعد المسافة لا نجد من شعرائهم من يندفع ويشيد بحكام بغداد و يمدحهم او يؤيد اعمالهم او حملاتهم لذلك جاءت كل او اغلب منظومات الشعر السياسي الموصلي قليلة باهتة ليست بذات قيمة فنية او بلاغية او صادقة في مشاعرها سلبا او ايجابا ..

فمن الشعر الموصلي –المثل- المناوئ للحكم الذي يفتقد الحدة وقوة القد قول الشاعر (مصطفى الغلامي) مستخدما بعض الالفاظ التركية في هجاء بعض الحكام الاتراك :

ما قولك يا علما (ادرنه) في زمن لا يشبه الازمنة
ترعد من انفاسه ركبتي ويقشعر الجلد منه سنـــة
هذا وذو كبكين او ثالث يقول(بوقيش صار حقرتنه)
والترك ان تدن لهم يبعدوا يصحيوا في غلمانهم(قاوسنة)
ولن اعزوك بالفاظهم كانت –ورب البيت- مستهجنة (٦٢)

وانت معي ايها القارئ الكريم اذا انا ادعيت ان هذا نموذج لا يرقى الى موقف جاد او حاد او سيولة شعر انما هو قرب الى التسلي او المفاكهة منه الى الخصام والمناوأة فضلا عن اللغة التركية و الالفاظ الساذجة مع لكنه وكلمات تركية تشمئز منها الاسماع ...

ولا نحتاج هنا ان نثبت اكثر من هذه المقطوعة في هجاء الحكام في الموصل اولا ثم لقلة مناوأة الموصليين لحكامهم او حكام بغداد ولان الامثلة الاخرى من شعر الموصل السياسي في نقد الحكام لا ترقى الى افضل من المقطوعة السابقة (٦٣) وهكذا اذن فهجاء الحكام في الموصل لا يضارع الشعر المعارض في بغداد قوة او كثرة او وفنا

اما شعر مدح الحكام في الموصل فهو وان كان اكثر من الهجاء الا انه في اكثره شعر مجاملات ومناسبات لا يشعرنا بعلاقة وطيدة بين الشعراء والحكام ولا بعاطفة ولا بصدق الهوى كما انها تفتقد الصور الصحيحة والمعاني البليغة او المستحسنة كما انه ليس فيه حرارة شعر المديح في بغداد ولا قوته ولا صدقه ..

فمن ذلك –للمثال- ما قاله الشاعر –يحيى بن مراد العمري- في والي الموصل عندما قضى اوساعد في القضاء على بعض انتفاضات اهل الجنوب مما لا يدل على مقدرة في ظلم السياسة او في تصوير الحرب فضلا عن وقوفه في صف الحكام الاجانب ضد ابناء الوطن الثائر على التعسف والاضطهاد من عشائرا لمنتفك وشمر وبني لام العرب حين قال :

الم تعلم الاعراب وقع سيوفكم وفي كل قفر موحش لهم قبر
(فمنتفق)لما ابدت نفاقهـــــم وفرقتهم في البيد صرعى لهم عفر
وشمر لما شمروا الساق في الوغى غدوا (ككلاب)حين يلحقهم ذعر-كذا-
واما(بنولام)فكان يلومهـــــــم لما نابهم قتل وحاق بهم اسـرُ (٦٤)

واحسب اني في غنى عن التعليق على ما في هذه الابيات من ركة في اللغة وضعف في النسج وملق للحكام وظلم للاهل من ابناء العشائر العربية الظالمة الثائرة ضد الجور وتشبيههم ب(الكلاب) مما لا ترقى الى الذوق الشعري ولا الى شعر بغداد السياسي حتى الممالئ منه للحكم وهو على كثرته النسبية لا اهمية فنية او تاريخية له لانه في الحالتين لم يكن مطلقا عن خصومة حقيقية ولا علاقة حميمة مع الحكم.

ولمثل اخير فقد نظم الشاعر الموصلي (محمد الغلامي)ديوانا كاملا في مدح والي الموصل (احمد أبن سليمان الجليلي)سماه(الجمان المنضد في مدح الوزير احمد) ولكننا لو تصفحنا الديوان كله لوجدنا افضل ما قاله الشاعر في هذا الحاكم الذي يتولى الحكم في ولاية صغيرة مثل الموصل فيجعل منه خليفة العصر واملم الزمان ومثال العدل فضلا ما فيها من ركة تعبير وسوء نسج وخشونة لفظ في قصيدة مطلعها :

خليفة هذا العصر للعدل احمد حميد السجايا ارفع المجد أشمخ
خبير بتذليل الطغاة ولم تزل صوارمه للمارقين تدوخ-كذا-(٦٥)

ولا احسب ان القارئ يحتاج الى اثبات المزيد من هذا الشعر الركيك لانها على كثرتها متساوية في تقليدتها وقلة الفن فيها (٦٦)

ومن هذه الامثلة من الشعر السياسي في الحقب الحلة والموصل، نتاكد من ان الشعر بغداد السياسي هو الانضج وان بغداد برزت بقية المدن العراقية الاخرى في هذا الفن وان البيئة السياسية في بغداد قد وسمت الشعر فيها فطبعته بطابعها وانضجته حوادثها واثرت فيه مواقفها وظروفها حتى فاق في الشعر السياسي فيها مدن العراق الاخرى – كما ونوعا وفنا ولهجة

هوامش البحث ومصادره:-

١-ينظر بهذا الشان : د. شكري فيصل في كتابه (مناهج الدراسة الادبية) ص ١٥٨ –ط دمشق ١٩٦٥ وعبد الكريم توفيق العبود في (الشعر العربي في العراق) ص ٦ ط بغداد ١٩٧٦ وجعفر الخليلي في (العوامل التي جعلت من الحقب بيئة شعرية) ص٩ –ط الحقب ١٩٧٠ وقطان رشيد التميمي في مقالته (الشكوى في الشعر الجاهلي) مجلة كلية الاداب –ج بغداد – العدد ١٣ ص ١٤٠ لسنة ١٩٧٥

٢-اظر- البحث- الادبي د.شوقي ضيف – دار المعارف بمصر – ص ٨٨

٣- اظر (رحلات الى العراق) السيرولس بدج – ترجمة فؤاد جميل بغداد ١٩٦٦- ٨٢/١

٤-في غمرة النضال – سليمان فيضي –ص ٥٩-بيروت ١٩٧٤

٥-اظر – صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة – جعفر خياط ط دار الكتب – بيروت ١٩٧١- ج ٢٦٧/١- ٢٦٨

٦-رحلتي الى العراق – جمس بكنغهام – ترجمة سليم طه التكريتي – ط دار البصري – بغداد ١٩٦٩ حـ ٢/ ٤٤

٧-الروض الازهر في تراجم ال سيد جعفر – مصطفى نور الدين الواعظ – ط الاتحاد – الموصل ١٩٤٨ –ص ١٢- ١٣

٨-تاريخ الحلة – يوسف كركوش– المطبعة الحيدرية – النجف – ١٩٦٥- جـ ١/ ١٤٠

٩-اظر الروض الازهر ١٢-١٣ , ٢١٢-٢١٥ , وتاريخ الحلة ١/١٤٤- ١٥٧

١٠- اظر – المماليك في العراق – احمد علي الصرفي – الموصل ١٩٥٢ – ص ١٧
١١- رحلتي الى العراق ٢ /٥٦
١٢- نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر – د. محمد مهدي البصير – مط المعارف – بغداد ١٩٤٦ ص ١٦
١٣- مجلة الايمان (النجفية) مقالة بعنوان : (اليعقوبي والادب الحديث) العدد ٧ لسنة ١٩٦٦ ص ١٦٥-١٦٧
١٤- قال الشاعر الشيخ علي الشرقي : (ان النجف في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين قد اضطربت مبادئها ونزعاتها السياسية ولما ارادت سياسة بغداد ان ترسخ وتستقر في بنيان الحكومة اختلفت مع النجف في بعض تعاريج السياسة وملتويلتها فقضت بغداد باعتزال النجف عن السياسة فاعتزلت – مجلة (لغة العرب) مقال (الادب النجفي) عدد كانون الاول ١٩٢٦-ج٦/ص ٣٢٤.
١٥ – ينظر تاريخ العراق بين احتلالين – عباس العزاوي ١٩٦/٦ بغداد /١٩٥٤و : المماليك في العراق - ٢١٧ تاريخ التعليم في العراق – عبد الرزاق الهلالي /ص ٢٦ الشعر العراقي في القرن التاسع عشر – د.يوسف عز الدين القاهرة ١٩٦٥ رحلتي الى العراق ٥٦/٢
١٦- كان لمسالة التجنيد الإجباري اثر كبير في ابتعاد الناس عن السلطة وتخوفهم منها او الاتصال بها فقد فر العراقيون من التجنيد الاجباري فورا تها وبسبب الاساليب المتعسفة التي كانت تتبع للتجنيد ولا سيما ما قام الوالي (السردار عمر باشا) بتجنيد الناس بالقوة في النجف وفي غيرها من مدن العراق لها الوالي (نامق باشا) في وزارته الثانية سنة ١٨٦١ فقد جعل التجنيد عقوبة لكل من يقترف ذنبا او يسرق او يشرب الخمر او من الاعمل له – تاريخ العراق بين احتلالين عباس العزاوي ١١٦/٧, ١٣٧
١٧-يقول الشيخ علي الشرقي (النجفي) في كتابه (الاحلام) ان الكثير من النجفيين كانت لهم املاك وزارع في المدن المحيطة بالنجف كالكوفة والشامية الرميثة والشنافية والسماوة والرماحية
وكانت تجبي الاموال والواردات الى الملاكين من اهالي النجف وكان قسم منهم يشرفون على مزارعهم ومحاصيلهم وقت الحصاد ويجمعون الغلة ويستوفون الوارد ويعودون الى النجف
الاحلام- علي الشرقي –بغداد ١٣٨٣هـ /١٩٦٣م ص ٧٤-٧٥ر
١٨- النجف الاشرف – عاداتها وتقاليدها –طالب علي الشرقي النجف ١٩٧٧- ص ٥٠ والاحلام ص ٥٨
١٩- النجف الاشرف – ص ٤٧
٢٠-قال د. يوسف عز الدين : ان الحكومة في العراق في القرن ال١٩ حالت بين الناس وبين العمل المثمر وحين حرموا ذلك الجانب انصرفوا الى الجانب الاخر من الحياة حياة اللهو والعبث والخمر والمساجلات والمدائح الاجتماعية والمجاملات .
الشعر العراقي – اهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر ص ١٦٢-١٦٣
ط٢- القاهرة ١٩٦٥
٢١- نهضة العراق الادبية – ص ٩٠
٢٢- تطور الفكرة والاسلوب د. داود سلوم – مطبعة المعارف- بغداد ١٩٥٩ – ص ٢٨
٢٣- لسان العرب ١٠٨/١ – مادة سيس
٢٤- الشاعر عبد الغني جميل ولد في بغداد سنة ١٧٨٠م وتولى الافتاء فيها ثم ثار على حكم الوالي (علي رضا باشا) بسبب تعسف موظفيه بالناس سنة ١٨٣٢م فاحرقت داره ونهبت مكتبته اظر (مجموعة عبد الغفار الاخرس)ص ٩-١٢
٢٥-اظر الشعر العراقي – اهدافه وخصائصه – ١٣٥-١٣٨
٢٦-الشعر العراقي الحديث –مرحلة وتطور- د. جلال الخياط بيروت ١٩٧٠ ص ٢٢-٢٣
٢٧- الشعر السياسي العراقي –ابراهيم الوائلي-ط٢-بغداد ١٩٧٨ ص ٢٦٨
٢٨-تطور الفكرة والاسلوب – ص ٦٥
٢٩-تطور الفكرة والاسلوب /ص ٥٧
٣٠- المصدر السابق -٦٦

٣١-اظر امثلة من لشعاره في نقد الحكام وتحديهم وهجائهم في (مجموعة عبد الغفار الاخرس) ص ٢٧-٢٩
٣٢-المدخل الى الادب العربي –بهجة الاثري-ط٤ ص ١٧٢
٣٣-ولد الشاعر صالح القزويني البغدادي في النجف سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٢م وانتقل وهو شاب الى بغداد وعاش فيها وشارك في احداثها بقي فيها حتى وفاته سنة ١٨٨٨م له ديوانا شعر ما زالا مخطوطين وهما موجودان الان في مكتبة الآثار في بغداد – أحداهما باسم (ديوان صالح القزويني البغدادي) والثاني باسم (الدرر الغروية في مدح العترة المصطفوية) – وتنظر ترجمته مفصلة في(نهضة العراق الادبية ص ٣١٩)
٣٤-اظر التفصيلات في (تاريخ الديوانية – وداي العطية – المطبعة الحيدرية – النجف ١٣٧٥هـ /١٩٥٤م ص ٤٩-٥٠
٣٥-ديوان صالح القزويني البغدادي –مخطوط –الورقة ٢٢٠
٣٦-ديوان التميمي – النجف ١٩٤٨ ص ١١٤-١١٥
٣٧-ديوان التميمي ص ٢١
٣٨-ديوان التميمي ٥٢-٥٤
٣٩-ديوان التميمي ١٩-٢٠
٤٠-المصدر السابق – ١٣٠-١٣١
٤١-المصدر نفسه -١٠١-١٠٢
٤٢-الترياق الفاروقي – وهو ديوان عبد الباقي العمري –ط٢ مطبعة النعمان – النجف ١٩٦٤ ص ٢٤٦-٢٤٧
٤٣-اظر قوله في ديوانه (الطراز الانفس) ص ٣٠٦ – قوله : (واني لشيعي لال محمد ...)
٤٤-الطراز الانفس في شعر الاخرس – وهو (ديوان عبد الغفار الاخرس)ط سلطانبول ١٣٠٤ هـ - ص ١٦٨-١٦٩
٤٥-الطراز الانفس –ص ٢٤٨
٤٦- الترياق الفاروقي –ص ٢٨٨-٢٨٩
٤٧-الطراز الانفس ١٩٨
٤٨- الشعر السياسي العراقي – ٢٧٣-٢٧٤
٤٩-التطور في الشعر العربي الحديث في العراق – د. علي عباس علوان / ٦٣
٥٠-مجلة الايمان (النجفية) – العدد ٧/لسنة ١٩٦٦ ص ١٦٥-١٧٥
٥١-الشعر العراقي الحديث –د. يوسف عز الدين –ص ٢٢ – القاهرة ١٩٦٥
٥٢-شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي – د.محسن غياض /ص ١٨١
٥٣- ديوان ابراهيم الطباطبائي – بحر العلوم – ص ٣٩ , ١٠١ , ١٨٩
٥٤- ديوان الطالقاني –ص ٤٣ ط الغري – النجف ١٩٥٧
٥٥- اظر ديوانه ص ١٤٦ – النجف ١٩٤٧
٥٦- اظر الديوان –المطبعة العلمية – النجف ١٩٥٦
٥٧- ديوان الطباطبائي – ابراهيم بحر العلوم –ص ١٠١
٥٨- ديوان حيدر الحلي ٣١٢/١
٥٩- ديوان صالح الكواز –ص ٨١-٨٤ –ط النجف ١٣٨٤ هـ
٦٠-اظر – ديوان حيدر الحلي ٤٦/٢
٦١- ديوان حيدر الحلي ٤٦/٢-٤٧
٦٢- تاريخ الموصل – سليمان صائغ – بيروت ١٩٢٨ – جـ٢ /١٣٣-١٣٤

٦٣-اظر امثلة منها في : الروض النضر في ترجمة ابناء العصر – عصام الدين العمري – مط المجمع العلمي العراقي ١٩٧٤ ج ٥١ ج٢ في اماكن متفرقة منها
٦٤-شمامة العنبر –مخطوط- غير مرقم-موجود في مكتبة الاثار –بغداد
٦٥- الجمان المنضد – محمد الفلامي – مط محفوظ- الموصل ١٩٤٠ ص ١٣٠
٦٦- اظر امثلة اخرى من المديح السياسي في نشوة الشمول /٤٨ ونزهة الدنيا /١٦ وتاريخ الموصل ١٨٠/٢ والروض النضر – ج١ , ج٢